نظرات خاطفة

# شاعر السودان *

## للأستاذ عبد القادر رشيد الناصرى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

إذن فشعر العباسى هو شعر الفخامة والجزالة والموسيقى العربية الأصيلة ذات الإيقاع الكلاسيكى والرنين البدوى العنيف الذى يعيد لنا تارة صوراً من شعراء بنى العباس وأخرى من شعراء الأمويين الذين عاصروا الخلفاء الراشدين وعمروا حتى أوائل الدولة التى اتخذت دمشق عاصمة لها

على أنى وقد قرأت الديوان بإمعان رأيت ناحيتين مهمتين تطغيان على شعره وهما :

١ — حبه لمصر :

عرفنا أن الشاعر جاء إلى مصر فى مطلع حياته ودخل المدرسة الحربية فى القاهرة ليعد نفسه حاميا لسياج الوطن، وعلمنا أيضا أنه مكث فيها مدة سنتين وكان آنذاك طرى الإهاب ، ندى العود ، فى فجر شبابه الريان ، فلذلك لم نعجب إذا ما ظل وفيا إلى الديار التى أبلى فيها بعض سنى شبابه ، ولا نستغرب منه حنينه إلى معاهد شبيبته ورفاق صباه، خاصة بعد ما ترك فيها أستاذه الشيخ زغلى الذى كان له الفضل الأكبر فى توجيهه وتثقيفه ، لذلك نسمعه يقول فيها :

مصر وما مصر سوى الشمس الق ... بهرت بشاقب نورها كل الورى
ولقد سميت لها فكنت كأنما ... أسمى لطيبة أو إلى أم القرى(١١)
وبقيت مأخوذاً ، وقيد ناظرى ... هـــذا الجمال ، تلفتاً وتحيرا
ووقفت فيها يوم ذاك بمعهد ... كم من يد عندى له لن تكفرا(١٢)
دار درجت على ثراهـا يافعاً ... ولبست من برد الشباب الأنضرا

ثم يسترسل فى وصف ربى مصر ومغانيها ورياضها وطيب هوائها العليل :

فهنا يسكب الشاعر ألمه الذى يحس به منذ فارق مصر وفرحه بالعودة إلى البلد الذى أحبه وعقد عليه رجاءه ورجاء شعبه الكريم لذلك يهتف فى مدح « ملك الوادى » من منبعه إلى مصبه

أقوى الملـكين عزيمة ... وأسدهم رأيا ، وأكرم عنصرا
فأقام من صرح العروبة ركنه ... مذ قام فيها منذرا ومبشرا

ثم يقول

مولاى يازين الملوك ومن غدت ... مصر به زين المواسم والقرى
علمت جاهلها وعلت فقيرها ... وسقتهمو يمنى يديك الكوثرا
بوركت من ملك وبورك عهدك الميمون ما أبهى سناه وأبهرا
انظر إلى السودان نظرة مشفق ... فلقد أمض زمانهم وتنكرا
وهو بعرشك لائذون ومالهم ... إلاك من بذر العسير ميسرا
فلذا تراهم كالعطاش تطلعوا ... بالدو يرتقبون مزنا ممطرا(١٣)

ثم يصرخ صرخته الموجعة فيشرح لملك النيل حال شعبه وما فعل به المستعمر البغيض من تفرقة الصفوف وسجن الأحرار وخنق الحريات وكم الأفواه فيقول :

ضربوا بأقفاص الحديد عليهم ... مثل الذى فعلوا بآساد الشرى
صبروا لها صبر الجبال رواسيا ... وسروا وما ملوا مغالبة السرى(١٤)
وسهرت أحـدوهم بذكرك دائما
وحدى وأشدو بلبلا أو مزهرا(١٥)
حتى لصفت لكل أذن منهمو ... قرطا وكنت قريده المتخيرا(١٦)

ونراه فى قصيدة أخرى يتشوق فيها إلى عهد الشباب الذى قضاه فى مصر وهو ناعم البال مستريح القلب فيقول :

هل إلى مصر رجعة وبنا شرخ شباب فضّ وزهرة عمر
وليال قد أشرقت فى رباها ... كلها فى الأقدار ليلات قدر

١١) طيبة هى المدينة المنورة وأم القرى مكة المكرمة
١٢) يشير الشاعر إلى المدارس الحربية المصرية فلقد التحق بها سنة ١٨٩٩ وقدم استقالته منها بعد سنتين

١٣) الدو : الأرض الفازة التى لا ماء بها ولا شجر
(١٤) السرى : السير ليلا
(١٥) يستبان من هنا أن ثقافة الشاعر الدينية هى التى جعلته يورد فى الشعر هذه اللفظة الفقهية وأعنى بها ( دائما )
(١٦) من قصيدته « آمال السودان فى مليك الوادى » ص « ٢٢ » من الديوان

ومكان كأن كل نسيم ناشر فى أرجائه طيب نشر
يبهر العين منه مرأى أنيق من مروج قيد الابواخر خضر
وهناك النسيم يعبث بالما ء ، ويزرى والورق الماء تغرى
وهناك البهى من كل زهر وهناك الشجى من كل طير
بقعة شاكلت هوى كل نفس فصبا نحو حسنها كل فكر
رب هل تلك جنة الخلد أدخلنا إليها أم تلك جنة سحر
كنت فى ذلك الحمى ناعم البا ل خليا من كل قيد وأسر
فيك يا مصر لذتى وسرورى وسميرى وقت الشباب ووكرى

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن أكثر شعراء السودان لا يزالون متعلقين بمصر ، يبنون عليها آمالهم وآمال شعبهم وبلادهم غير ملتفتين إلى صيحات دعاة التفرقة والاستعمار . هاتفين بالوحدة والتمسك بأهداف أمهم الحنون . وعلى رأس هذه الطبقة من الشباب المرحوم شاعر الإيداع التيجانى يوسف بشير . فهو يقول فى قصيدته « ثقافة مصر » (١٧)

عادنى اليوم من حديثك يا «مصر» رؤى وطوفت بى ذكرى(١٨)
وهفا باسمك الفؤاد ولجت بسمات على الخواطر سكرى
من أتى صخرة الوجود فقرا ها وأجرى منها الذى كان أجرى
سلسبيلا عذب المشارع ثرا ، ورياحم الأراذى غمرا(١٩)
كلما مصر السود منها زاد فى مجده جلالا وكبرا
كلما طوق « الكنانة » علماً خولتها منه روافد تترى
هو من صافنا على حرم النيل وشطآنه دعاء وشكرا
فجر النيل يوم نشر فى الأرض ضحاها وصاغ للناس فجرا

قال :

كن فاستجاش يقذف دفا عاً ويجرى على الشواطئ خمرا

ويقول أيضاً فى قصيدته « رسل الشباب فى مصر »

وشباب من الكنانة حس ينثرون الحماس صاحا بصاع
صرخوا بالعرين صرخة ذى مجد مذال وذى مقر مضاع
فى سبيل الجهاد عن مصر بنوها بمنصل ويراع
وأرى مصر والشباب حليف مجد فرعون أو ضحيهى يفاع
مصر دين الشباب فى الحضر الرافه والبدو من قرى وبقاع
مصر أم الشعوب ماذا عراها واعترى الشرق من وجى وضياع
حبذا الموت فى سبيلك يامصر لنفرء عن الحمى دفاع

* * *

قل لمصر وحيها فى شباب صيغ من جرأة ومن إزماع
شاد أركانها وشد ذراها وابتنى صرح مجدها المتداعى
فى جهاد من العقيدة صدق ونضال عن الحمى وقراع
مصر يامهبط الحضارة والنور ويامبعث الهدى كل ساع(٢٠)

وهكذا نجد أكثر أرباب الفن والقلم فى السودان لا ينكرون فضل مصر عليهم بل يتجهون دائما وأبداً صوب زعيمة النهضة وأم البلاد العربية متخذين منها قبلة يوجهون إليها صلاتهم وتسابيحهم وأناشيدهم لأنها الملجأ الوحيد والأمل الذى يخلصهم مما هم فيه ، ولا غرو ففضل أعلام مصر وأدبائها وشعرائها يستوى فيه السودانى والسورى والعراقى واللبنانى وكافة العرب فى أقطارهم . .

والناحية الثانية الظاهرة فى شعر العباسى التى تظهر واضحة جلية فى شعره هى بكاؤه على شبابه الذاهب وتذكره أيامه الخالفة

٢ — ذكرى الشباب :

تطالعنا لوعة تذكره لأيام صباه فى كل قصيدة من قصائده ، فهو يبكى على ساعات لهوه وسنى مراحه وذكريات أفراحه ، والناظر فى ديوانه يلمس هذه الظاهرة بوضوح تام فلنستمع إليه وهو يقول :

فارقتها والشعر فى لون الدجى
واليوم عدت به صباحا مسفرا (٢١)
« سبعون » قصرت الخطى فتركننى
أمشى الهوينا ضالعا متعثرا (٢٢)
من بعد أن كنت الذى يطأ الثرى
زهواً ، ويستهوى الحسان تبختراً

(١٧) ديوان إشراقة «ص٨٦»
(١٨) رؤى : المنظر
(١٩) الأراذى جمع أذى وهو الموج
(٢٠) ساع : ساعة
(٢١) فارقتها أى « مصر »
(٢٢) ضالع : معوج

يامن وجدت بحبهم ما أشتهي ... هل من شباب لي يباع ويشترى
ولو انهم ملكوا لما بخلوا به ... ولأرجعوني والزمان القهقرى
لأظل أرفل في شباب فاتني ... زمن الشباب ، وفاته متحسرا

أو يقول : —

وفؤاد قلب قد سلا نشوة الصبا ... وقد كان في ريعانه جد جاهد
وهل أبقت الأيام شيئا أفده ... وقد أسلمتني للردى والشدائد
فيا بعد لذات الصبا غير نادم ... وعدت لشيب لم يكن خير وافد

أو يقول :

ليت الشباب عاد لي ... بعد المشيب والكبر
حتى أرى أين محط ... الرجل من كف القدر

أو قوله :

واليوم قصر بي عما أحاوله ... وعاقني عن لحاق الركب ما عاقا
وأنكر القلب لذات الصبا وسلا ... حتى الندمين : أقداحا وأحداقا

أحبو إلى الخمس والستين من عمري

حبواً وأحمل أقلاما وأوراقا

أو قوله :

ما أنس لا أنس إذ جاءت تعاتبني ... فتاة لحظ ذات الحاجب الدوني
يا بنت عشرين والأيام مقبلة ... ماذا تريدين من موءود خمسين ؟

أو قوله :

ولي شبابي وانطوت ... أيام غصني الندى
جادك نجاح الحيا ... من مبرق ومرعد
لأنت ريحان القلو ... ب عدت أو لم تعد

وهكذا فنحن كلما قلبنا صفحات الديوان لاتقع أعيننا إلا على ذكرى مؤلمة لشباب مضى .. فهو كلما مرت به مجلة الحياة سجل أعوامها في شعره وهذا يرجع سببه كما يقول « علماء النفس » إلى كبت عواطفه وعدم الانسياق في ظرف اللهو التي يزينها الشباب وعدم إطاعة نوازع الجسد في دور الصبا؛ وذلك لوجوده في بيئة جامدة محافظة ووجوده بين أحضان عائلة دينية متمسكة بتقاليدها ، لذلك نجد طابع الألم مرتسما على كل بيت يذكر فيه شبابه كما يفعل اليوم أكثر الرجال الذين يحرمون في شبابهم من متع الحياة لفقرهم أو لانصرافهم إلى العلم ولكنهم عندما تتاح لهم الفرصة ولو في كهولتهم تراهم يركضون وراء اللذات كأنهم منطلقون من السجون ، كما حدث للشاعر الرصافي فإنه بعد أن قضى شبابه وهو منطو على نفسه رأيناه في صدر رجولته يصب من كؤوس اللذة صبا ، دون ما وازع أو رادع

ولذلك فإن العباسي يحق ببكائه على أيام شبابه لأنه حرم من لذته وهو في كل ما قاله صادق العاطفة يحس فيه قارئه حرارة اللوعة وصدق الإيمان

إلى هنا نمسك عن الحديث لنترك المجال إلى غيرنا للكتابة عن هذا الشاعر لنعود مرة أخرى إلى تقديم نماذج جديدة من شعراء السودان الشباب في أعداد قادمة إن شاء الله

بغداد — عبد الغفور رشيد الناصري

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى

للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر في الباكستان

ثمن الأول ثلاثون قرشا والثاني أربعون قرشا عدا أجرة البريد

والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة